حول الوحدة العربية

بين الحصري بك وطه حسين

للأستاذ عز الدين التنوخي

عدتُ مساء إلى منزلي فاستقبلتني غادة « الرسالة » بثوبها الأحمر القشيب ، وهي أبداً بين المجلات قيد ناظري ، وهوى خاطري . ولا غرو في ذلك ، فإن الدماشقة خاصة ، وأبناء العرب عامة ، يفضلونها لروحها العربية ، وبما تحمله على « توحيد الثقافة العربية » ، على سائر المجلات المصرية . وكلما ازداد الإيمان القومي في العرب ، ازداد هذا الحب الطبيعي للرسالة ، وازداد معه بمقدار ذلك الهجر والإعراض عن غيرها . وأكتفي بالمثال الواقعي التالي دلالة على صحة ذلك : فلقد شاهدت غداة أمس فتى عربياً في الترام يحمل مجلات بينها « الرسالة » . فقلت له :

— أية مجلة تحبها مما تحمل ؟

— مجلة « الرسالة » !

— ولماذا آثرتها بالمحبة ؟

— لأن روحها المصرية تمتزج بروحنا العربية ، ولأنها — وهنا أشار إلى التلاف — تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية !

وحينما رأيت مساء مجلة « الرسالة » ، نظرت إلى فهرسها فوجدت فيه موضوعاً يهمني — وأبناء العرب جميعاً — وهو رد الأستاذ ساطع الحصري على الفصل الجوابي الذي نشره الأستاذ طه حسين في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » .

أجل ! كنت أنتظر بصبر غير جميل من مثل أبي خلدون أن يعيد الكرة على صاحبه الذي أحاله في نقض انتقاداته على الفصل الجوابي . ذلك بأنا — ولا نكتم الدكتور طه حسين — كنا قد اعتبرنا هذه الإحالة يومئذ ضرباً من الفرار من معركة المناظرة ، وقرأت اليوم كتاب الأستاذ أبي خلدون (إلى الدكتور طه) ، فلا أدري ماذا عسى أن يراجع به هذا الأديب العربي الكبير ناقده بعد أن استشهد عليه بكلامه ، وحصين منطقه ؟

نعتُّ الآن الدكتور طه حسين — بالأديب العربي — لا بالمصري ، فحسب ، لأن أدبه عربيٌّ بمصادره ، عربيٌّ بلغته وألفاظه ، عربي بمباحثه المبتكرة ، وأساليبه المستعذبة ! عربي على الرغم منه بروحه حينما يرسل نفسه على سجيتها ، وبقول ما يقول غير منتصر للفرعونية ، وغير مجامل لأنصارها !

أليس طه حسين هو الذي فضل أدبنا العربي القديم على معظم آداب أمم الحضارة القديمة في كتابه « حديث الشعر والنثر » ؟ أليس طه حسين من أقدر العاملين على إحياء لغتنا العربية بإحياء آدابها بذلك الأسلوب العربي الرائع ببلاغته على سلاسته وبامتناعه على إطماعه ؟ أو ليس هو المنادي بتوحيد الثقافة العربية التي إن ضمنها للأستاذ أبي خلدون ، وضمنها لنا أيضاً ، ضمنا له كل ما بقي من ضروب الوحدة ؟ !

أجل بالدكتور طه حسين أن يكون أديب الأقطار العربية كلها من أن يكون في قطر واحد أديباً ! وليته — أصلحه الله — جامل في المكشوف أدباء العرب الذين يتنافسون في اقتناء آثاره ، ويتباهون بأنهم من أنصاره . أو ليته — وهو مسلم مصري — خاطب العرب بما خاطبهم به الأستاذ مكرم عبيد — وهو النصراني المصري — وهو لذلك أشد اتصالاً منه بالقرابة ذوي الأوتاد !

وليسمع الدكتور طه حسين ما يقوله الأستاذ مكرم عبيد في عدد الهلال الممتاز « العرب والإسلام » :

« سافرت في رحلة صيفية إلى سورية ، وتفضل إخواني السوريون في الشام ولبنان وفلسطين ، فشملوني بترحيبهم وتكريمهم ، فوقفت يومئذ وتحدثت عن الوحدة العربية وقلت : « المصريون عرب » . وأبديت رأيي في هذه النظرية التي يؤيدها التاريخ ، فنحن معشر المصريين جئنا من آسيا[1] ، ونحن أدنى إلى العرب منذ القدم من حيث اللون واللغة والخصائص السامية والقومية » إلى أن يقول : « نحن عرب ! ويجب أن نذكر في هذا العصر دائماً أننا عرب قد وحدت بيننا الآلام والآمال ، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان ، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان . فأحدثت منا أمماً متشابهة متماثلة في كل ناحية من نواحي الحياة »

ثم تكلم عن الوحدة العربية بقوله : « فالوحدة العربية حقيقة قائمة ، هي موجودة لكنها في حاجة إلى تنظيم ؛ والغرض من التنظيم إيجاد جبهة تناهض الاستعمار ، وتحفظ القوميات ، وتوفر الرخاء ، وتنمي الموارد الاقتصادية ، وتشجع الإنتاج المحلي ، وتزيد

(١) وقد بين لنا في موضع آخر وطن المصريين الأول بقوله ص ٣٣ : « وامتداد أصلنا القديم إلى الأصل السامي الذي هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية » .

في تبادل المنافع وتنسيق المعاملات. فكما أن أوربا خلقت شيئاً معنوياً ترتبط به وتلتف حوله أغراض سكانها على اختلاف أممهم، فكذلك نحن سيؤول مصيرنا إلى الالتفاف حول مثل أعلى يوفق بيننا فنصير كتلة واحدة وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة، أو وطناً كبيراً يتفرع منه عدة أوطان - لكل منها شخصية لكنها في خصائصها القومية العامة متحدة متصلة اتصالاً قوياً بالوطن الأكبر»

وفي هذا البحث الممتع للأستاذ مكرم عبيد يشير آنفاً إلى رحلته الصيفية للديار الشامية وأنه كان يتحدث إلى المرحبين به قائلاً: (المصريون عرب)

صدق والله، فقد كنت من جملة المرحبين بأخوته العربية في نُزل أمية بدمشق، وسمعت هذه الكلمة الطيبة من فيه، لا فض فوه. ولا أزال أذكر ذلك يوم سألته عن تلك النبرة الفرعونية في مصر فقال لي ما معناه: نحن عرب في مصر ولا نجد الفراعنة إلا لأنهم عرب!

الأستاذ مكرم عبيد فرعوني صميم، ومن نوابغ مصر في ثقافته وأخلاقه ووطنيته، والأستاذ طه حسين المسلم المصري يحكم والناس معه بالظن على فرعونيته، فلن يكون بذلك أصدق تفرعنا من مكرم عبيد، وإذا ما ادعى ذلك كان أشد فرعونية من فرعون نفسه، أو - أشد كما قيل - ملكية من الملك!

والأستاذ طه حسين الذي كان ينكر الوحدة العربية بأنواعها وشرائطها، ويعد من يقول بهذه الوحدة من أصحاب العقل القديم، قد أصبح ولله الحمد أخيراً قديم العقل كالأستاذ مكرم عبيد لقولهما بالوحدة العربية على شكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري!

وأظن أخانا العربي الزيات قديم العقل أيضاً لقوله بالوحدة العربية، فما أجمل ذلك العقل القديم الذي يصل بين الأرحام المتقاطعة والأرواح المتناكرة والقلوب المتنافرة، ونخير لنا ألف مرة أن يجمع شملنا العقل القديم من أن يمزق ويفرق بيننا العقل الحديث.

(دمشق) عز الدين التنوخي
عضو المجمع العلمي العربي